المحاضرة : (الخامسة)
(قضايا منهجية)

تعددت مناهج الدرس اللغوي ، وتنوعت وجهات نظر الباحثين في تناول ظواهر اللغة ، وكان للدراسة الصوتية نصيب كبير من ذلك ، ومن المفيد أن نحدد موقف هذه الدراسة من عدد القضايا المنهجية منذ أولى مراحلها ، حتى لا تختلط فيها المفاهيم ،أو تلتبس على القارىء فيها الآراء ، ومن أهم تلك القضايا ما يأتي:

أولاً : فروع علم الأصوات :

اللغة أصوات منطوقة تصدرها آلة النطق لدى الإنسان ، وتنتقل من فم الناطق إلى أذن السامع عبر الهواء ، وقد تطورت دراسة الأصوات في عصرنا وشملت مراحل إنتاج الصوت ، وانتقاله وتلقيه ، وتخصَّصَ لدراسة كل مرحلة من مراحله الثلاث هذه فرع من فروع علم الأصوات ، وتتفاوت أهميتها لدارس الأصوات اللغوية تبعاً لنوع الدراسة التي يقوم بها ، وتبعاً لتخصصه العلمي وسعة اطلاعه . وهذا تعريف موجز بها :

١.علم الأصوات النطقي :

هو الذي يهتم بدراسة حركات أعضاء النطق من أجل إنتاج أصوات الكلام ، وتحديد مخارج الأصوات وبيان الصفات الصوتية التي تشكل الصوت .

وهذا الفرع من فروع الدراسة الصوتية أقدم فروع علم الأصوات وأرسخها قدماً وأكثرها حظاً في الانتشار في البيئات اللغوية كلها ، ويرجع السر في ذلك إلى وظيفة هذا الفرع وإلى طبيعة الميدان المخصص له ، فهو يدرس نشاط المتكلم بالنظر في أعضاء النطق ، وما يعرض لها من حركات ، فَيُعيِّنُ هذه الأعضاء ويحدد وظائفها ودورَ كل منها في عملية النطق ، منتهياً بذلك إلى تحليل عملية إصدار الأصوات من جانب المتكلم .

وهذا النوع من الدراسة سهل المنال للملاحظة الذاتية. فالممارسة الشخصية بطريق ذوق الأصوات ونطقها مرة بعد أخرى ، وتحديد نقاط النطق . وتعيين حركات أعضاء النطق ، كلها أمور في متناول يد الدارس ، وليست في حاجة إلى عناء كبير أو تدريب شاق ، ومعظم الأعضاء التي تشترك في إصدار الأصوات تخضع لنظر العين المجردة أو يمكن ملاحظتها بمساعدة آلات بسيطة ، ومن ثم كانت الدراسات الصوتية في العصور القديمة مبنية في أساسها على هذا النوع من الدرس ، بوصفه الوسيلة المتاحة التي يمكن الاعتماد عليها في وقت لم تكن فيه الوسائل الآلية قد عرفت . وكان الدرس الصوتي العربي القديم مثالاً ممتازاً لهذا المنهج في دراسة الأصوات. وقد أتاح التقدم العلمي لعلم الأصوات النطقي أن يخطو خطوات بعيدة المدى في دراسة أعضاء آلة النطق وكيفية إنتاج الأصوات ، فاستعان الدارسون بعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء في التعرف الدقيق على العملية النطقية والكشف عن الكثير من أسرارها ،

٢-علم الأصوات الفيزياوي :

الصوت طاقة أو نشاط خارجي تقوم به أجسام مادية ،ويؤثر في الأذن تأثيراً يحدث عنه السماع . والصوت اللغوي أثر سمعي يصدر طواعية واختياراً عن تلك الأعضاء المسماة أعضاء النطق . ويشتمل الصوت على موجات تنتشر في الهواء بسرعة ٣٤٠مترًا في الثانية .

ووظيفة علم الأصوات الفيزياوي (وقد يسمى علم الأصوات الأكوستيكي) دراسة التركيب الطبيعي للأصوات ، فهو يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء بوصفها ناتجة عن ذبذبات ذرات الهواء في الجهاز النطقي المصاحبة لحركات أعضاء هذا الجهاز . ومعنى هذا أن وظيفته مقصورة على تلك المرحلة الواقعة بين فم المتكلم وأذُن السامع . وفيزياء الصوت والموجات موضوع كُتبت فيه كتب مستقلة يدرسها المتخصصون بعلم الفيزياء ، ويعني بها المشتغلون بوسائل الاتصالات ، ومعظم مباحثها لا تهم المشتغل بدراسة أصوات اللغة ، لكن بعضًا من تلك المباحث يمكن أن يستفيد منه دارس أصوات اللغة ، وقد تفاوت الاهتمام بهذا الجانب في الكتب المؤلفة في علم الأصوات اللغوية ، فمن الكتب ما أهمل الإشارة إليه ، ومنها ما توسع فيه ، لكن تظل هناك صعوبة تعترض اللغوي في تناوله ، لأنه .كما يقول فندريس : ((لا يمكن الاقتراب منه دون تحضير رياضي متين)).

وأكثر اهتمامنا في هذا الكتاب متجه نحو موضوعات علم الأصوات النطقي ، فهو الذي يهم دارسي اللغة أكثر من غيره ، ومباحثه في متناول يد معظم الدارسين ، وجُلُّها يمكن أن يدرك بالملاحظة الذاتية ، لكني أحسب أن توضيح بعض القضايا المتعلقة بفيزياء الصوت يكشف لدارس أصوات اللغة أموراً

لا غنى له عنها إذا أراد أن ينطلق من فهم صحيح لحقائق الصوت وهو يعالج أصوات اللغة .ومن تلك القضايا معرفة الذبذبة ، والموجة الصوتية وأنواعها ، ودرجة الصوت ، وعلوه ، وشدته ، وتنوعه . ولا يتسع المقام للدخول في تفصيلات هذه الموضوعات .

٣.علم الأصوات السمعي :

لا تتحقق للصوت الذي تنتجه أعضاء آلة النطق قيمة فعلية إلا بعد أن تستقبله أن السامع ، كما أن وظيفة اللغة .التي هي أصوات منطوقة .لا تتم إلا إذا كان الكلام يحصل بين شخصين أو أكثر . فعملية سماع الأصوات جزء أساسي في أداء اللغة لوظيفتها ، لكن آلة السمع يرتبط عملها بعمل آلة النطق أو مصدر التصويت . وكان علماء اللغة يعنون بدراسة إنتاج الأصوات في آلة النطق من دون الاهتمام بأثرها في السمع .

وازدادت عناية الباحثين في العصر الحديث بالجانب السمعي للأصوات اللغوية ، وأدت بحوثهم في هذا الجانب إلى نشأة علم الأصوات السمعي الذي كان أحدث فروع علم الأصوات ، وهو ذو جانبين : جانب عضوي (أو فسيولوجي) ، وجانب نفسي (أو عقلي) . أما الأول فوظيفته دراسة الذبذبات الصوتية ، وهو بهذا يقع في مجال علم وظائف أعضاء السمع. وأما الثاني فيهتم بدراسة كيفية انتقال تأثير الأصوات من الأذن الداخلية إلى عقل الإنسان وإدراك دلالتها المعنوية ، وهو أقرب إلى مباحث علم النفس . إن هذا النوع من الدراسة يحتاج إلى أجهزة وآلات ليست متاحة للغوي عادة ، أو هو ليس بقادر على التعامل معها بطريقة تضمن له الدقة في عمله ، فليس من الغريب إذن أن تتخلف الدراسة في علم الأصوات السمعي بجانبيه أشواطاً بعيدة عن مثيلاتها في الفرعين الآخرين ، وهما علم الأصوات النطقي وعلم الأصوات الفيزياوي . ومن النادر أن تجد بحثاً صوتياً عاماً أو باحثاً لغوياً عاماً يعرض لهذا العلم ومشكلاته ، قانعاً بعلم الأصوات النطقي وقدر . معين من مباحث علم الأصوات الفيزياوي .

ثانياً: مناهج الدرس الصوتي:

إن الباحث في اللغة يمكن أن يتجه إلى دراسة اللغة في فترة معينة من حياتها ، فيصف عناصرها ويكشف عن نظمها ، من غير أن ينظر إلى ما كانت عليه في حقب سابقة ، ومن غير أن ينظر إلى ارتباطها بمجموعة لغوية معينة ، أو يوزان بينها وبين أية لغة أخرى ، فتكون دراسته حينئذ وصفية خالصة . فإذا وازن بين اللغة التي يدرسها ولغة أو مجموعة من لغات أخرى تنتمي إلى فصيلة لغوية واحدة كانت دراسته للغة تتبع المنهج المقارن في دراسة اللغة . فإذا نظر في اللغة المدروسة وتتبع تطور نظمها الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلالية ، خلال حقب تاريخية متعاقبة كانت دراسته للغة تتبع المنهج التاريخي . ويلجأ علماء اللغة حين يكون هدف دراستهم تعليمياً إلى المنهج المعياري الذي يقوم على تحديد قواعد اللغة على أسس منطقية ، تُعنى بالمُطَّرِدِ من الظواهر ، وتهمل الشاذ والقليل والنادر ، لتكون تلك القواعد نموذجاً يُحتذى من المجموعة اللغوية التي تتكلم اللغة .

ويمكن لدارس اللغة أن يسلك أيّاً من مناهج البحث الأربعة في اللغة : الوصفي ، والمقارن ، والتأريخي ، والمعياري ، في دراسة أي ظاهرة لغوية أو أي مستوى من مستويات الدرس اللغوي : الصوتي ، والصرفي ، والنحوي ، والدلالي ، . ويهمنا في هذا الكتاب أن نحدد المنهج المناسب لدراسة أصوات اللغة العربية .

إن الدراسات الصوتية العربية القديمة لم تتضح فيها مناهج البحث اللغوي المذكورة ، لكونها لم تتحدد إلا في القرن الأخير ، ولكن المتأمل في تلك الدراسات يلحظ أنها تستند إلى الوصف لأصوات اللغة مع ميل إلى تقرير القواعد ، فهي إذن يمكن أن تسلك في إطار الدراسة الوصفية .المعيارية .

أما الدراسات الصوتية العربية المعاصرة فقد تعددت مناهجها ، وتنوعت تبعاً لهدف كل دراسة وتوجه كاتبها ، فكان يغلب على بعضها المنهج المقارن كما في كتاب " التطور النحوي" للمستشرق الألماني برجشتراسر ، ومثله ما ورد عن أصوات العربية في كتاب " فقه اللغات السامية " لكارل بروكلمان. وغلب على بعضها المنهج الوصفي مع عناية كبيرة بتتبع تطور أصوات العربية ، مما يجعلها أقرب إلى المنهج التاريخي ، كما في كتاب " دروس في علم أصوات العربية " لجان كانتينو . والتزم بعض المؤلفين بالمنهج الوصفي الخالص في دراسة أصوات العربية ، كما نجد عند الدكتور محمود السعران في كتابه " علم اللغة: مقدمة للقارىء العربي " .

ونحا بعض المؤلفين منحى يأخذ من كل منهج بطرف ، فدرس الأصوات دراسة وصفية لكنه تحدث عن التطور التاريخي لأصوات العربية ، كما استفاد من مقارنة بعض الظواهر الصوتية العربية بأخواتها مما يعرف باللغات السامية ، على نحو ما يظهر ذلك في كتاب "الأصوات اللغوية " للدكتور إبراهيم أنيس .

إن تصنيف الدراسات الصوتية العربية القديمة والمعاصرة على هذا النحو أمر لا يخلو من التعميم ، كما أنه قد يفتقر إلى الدقة أحياناً لكنه مفيد فيما أحسب لتحديد وجهة الدراسة في هذا الكتاب ، فقد وجدت أن الدراسة لا يمكن أن تنبني على منهج واحد فقط ، كما أن تدافع المناهج فيها قد يكون مُضِرّاً

من بعض الوجوه . ولمّا كان الهدف من هذا الكتاب أن يكون كتاباً علمياً وتعليمياً لأصوات العربية الفصحى فقد وجدت أن المنهج الوصفي المقترن بنظرة معيارية هو الأكثر مناسبة لتحقيق ذلك الهدف ، مع الأخذ بما يلزم من حقائق صوتية تقدمها الدراسة المقارنة أو تدعو النظرة التاريخية إليها .

ثالثاً : مستويات الدرس الصوتي :

إن دراسة قابلية آلة النطق لدى الإنسان على إنتاج الأصوات ، والنظر في الحركات العضوية التي تسهم في إنتاج كل صوت ، ودراسة الخواص الفيزياوية للصوت الإنساني وتتبع رحلته من فم المتكلم إلى أذن السامع وتحليلها .يمكن أن تتم بمعزل عن لغة مَن يقوم بتلك الدراسة أو أية لغة أخرى. أي أن هذا النوع من الدراسة يُعنى بالجانب المادي للصوت ، من غير النظر إلى وظيفته في اللغة وائتلافه مع غيره في أبنية تدل على المعاني . وهذه الدراسة للأصوات الإنسانية أشبه ما تكون بدراسة الأصوات الطبيعية التي يسمعها الإنسان من حوله ، فيتعرف على كيفية إنتاجها ويحلل خواصها الفيزياوية من غير أن يربطها بمعنى معين .

ويمكن للدارس أن ينحو منحى آخر في دراسة الأصوات الإنسانية ، وذلك بالنظر من خلال لغة معينة ، أو النظر في أصوات لغة معينة من غير أن يرتبط ذلك بإمكانيات آلة النطق لدى الأنسان . ويمكن أن تشتمل هذه الدراسة على تحديد الأصوات التي تستخدمها لغة ما ، فنقول : إن هذه اللغة استخدمت ثلاثين صوتاً وتلك استخدمت ستاً وثلاثين صوتاً مثلاً . ثم النظر في طريقة اللغة التي ندرسها في تنظيم هذه الأصوات في كلمات لتدل على المعاني ، وأبرز الأشكال الممكنة لنسج الكلمات والأشكال غير المستعملة في تلك اللغة . ويدخل ضمن هذه الدراسة أيضا الظواهر الصوتية التي تلحق الأصوات عند ائتلافها في كلمات وعبارات ، وتحديد القوانين الصوتية التي تتحكم في تلك الظواهر . إن هذا التمييز في مستويات الدرس الصوتي بدا واضحاً لدى الدارسين الغربيين في هذا القرن ، وخصصوا لكل مستوى مصطلحاً غلب إطلاقه عليه ، فأطلقوا على الدراسة العضوية والفيزياوية للأصوات مصطلح الفونتيك Phonetics ، واستخدموا لدراسة الأصوات من حيث وظائفها في اللغة مصطلح الفونولوجيا Phonology . وترجم بعض الدارسين المصطلح الأول بعلم الأصوات العام ، والثاني بعلم وظائف الأصوات ، أو علم الأصوات التنظيمي. واختلف علماء اللغة الغربيون في استخدام هذين المصطلحين وفي دلالتهما اختلافاً كبيراً ، تبعاً لاختلاف وجهات نظرهم أو المدارس اللغوية التي ينتمون إليها .

إن السؤال الذي تلتزم الإجابة عليه هنا هو : هل يجب على دارس أصوات العربية أن يلتزم بهذا المنهج ، فيدرس الأصوات على مستويين ؟ والإجابة على السؤال تنبع من حقيقة موضوعية هي أن دراسة أصوات اللغة لا يمكن أن تكون تامة ومفيدة من غير التعرف على خصائصها النطقية ، كما أن دراسة الأصوات على أنها أحداث مادية لا تكون مفيدة من غير أن ترتبط بلغة معينة . وبناء على هذه الحقيقة يبدو الفصل بين المستويين المذكورين لدراسة الأصوات أمراً غير عملي ، لا سما في دراسة عامة لأصوات العربية تُقَدَّم لدارسين متخصصين في اللغة العربية لكنهم لم تتح لهم فرصة دراسة أصوات العربية دراسة منهجية منظمة في منهاجهم الدراسية الجامعية الأولية .

وهذا التوجه في عدم الفصل بين جانبي الدرس الصوتي كان قد ظهر قوياً لدى الدارسين الغربيين ، وقد انتهى الدكتور كمال محمد بشر بعد مناقشة طويلة للموضوع وعرض مفصل لوجهات نظر الدارسين الغربيين إلى القول : "ونحن من جانبنا نقرر أن الفوناتيك والفنولوجيا ليسا إلا مرحلتين أو خطوتين من خطوات البحث ، وكلاهما مرتبط بصاحبه ومعتمد عليه ، فسادتهما واحدة وهي أصوات اللغة ، وهدفهما واحد ، وهو دراسة هذه الأصوات ، والفرق بينهما إنما هو في المنهج والطريقة . ومن ثم لا يجوز الفصل بينهما أو عزل أحدهما عن الآخر ... وفي كل الظروف وعلى كل حال ، استقر الرأي لدينا على أن الفنولوجيا .بمعنى نظام البحث في الأصوات من حيث قيمتها ووظيفتها في اللغة . لا يمكن تصوره منفصلا برهة واحدة عن الفوناتيك عند مراحل التطبيق والتحليل الفعلي للأصوات ، لهذا كله ليس من الخطأ أو سوء التقدير أن ننظر إلى الفرعين على أنهما جانبان لشيء واحد ، وأن نشير إليهما معاً باسم واحد هو (علم الأصوات) ما لم تكن هناك ضرورة علمية ملحة ، وذلك عندما يكون العمل مركزاً على أحد الجانبين دون الآخر" .

ويقول الدكتور محمود السعران : " إن هذين النوعين من الدراسة يعتمد أحدهما على الآخر ، وهما متكاملان ، ومن العبث أن نحاول أن نقرر أيهما أفضل من أخيه ، وتبعاً لهذا يَحْسُنُ تجميع الدراستين معاً تحت التسمية العامة التقليدية : علم الأصوات اللغوية " .

رابعاً: الدراسة الصوتية الآلية:

إن أهم إنجاز حققته الدراسات الصوتية في العصر الحديث هو استخدام الأجهزة والآلات في دراسة وتحليل الأصوات اللغوية ، وكان ذلك من أهم أسباب التقدم الكبير الذي حققه علم الأصوات بالنسبة إلى علوم اللغة الأخرى ، وتقسم الوسائل الآلية اللغوية اليوم على قسمين هما :

١.الوسائل الآلية المستخدمة في دراسة اللغة .

٢.الوسائل الآلية المستخدمة في تعليم اللغة .

ولا يهمنا هنا الحديث عن الوسائل التعليمية للغة ، بقدر ما تهمنا الإشارة إلى الوسائل المستخدمة في دراسة اللغة ، والأصوات منها خاصة فهي التي يحتاج إليها دارس أصوات اللغة ، وهي التي تحدث عنها المؤلّفون في الأصوات اللغوية .

وقد تنوعت الوسائل الآلية لدراسة الأصوات كما أنها تطورت تطوراً كبيراً يعكس ما حصل من تطور للصناعة في العالم في العقود الأخيرة ، وصارت دراسة الأصوات بالوسائل المذكورة فرعاً مهماً من فروع علم الأصوات ، بل صارت علماً قائماً بذاته يسمى علم الأصوات الآلي أو علم الأصوات المعملي .

وتقسم الآلات المستخدمة في دراسة أصوات اللغة بحسب العلم الذي تستخدم فيه أو الموضوع الذي تعالجه إلى ما يأتي :

١.الآلات المستخدمة في علم الأصوات النطقي (الفيزيولوجي) .

٢.الآلات المستخدمة في علم الأصوات الفيزياوي (الأكوستيكي).

٣.آلات إنتاج الأصوات الصناعية .

ولا تتوفر هذه الآلات في المؤسسات العلمية في بلادنا ، ومن ثم فإن الحديث عنها أو عن استخدامها في دراسة أصوات العربية في هذا الكتاب يظل حديثاً نظرياً ومحدود الفائدة أو عديمها . لكن الاستعانة بالدراسات السابقة المستندة إلى الوسائل الآلية التي تضمنها عدد من الكتب المؤلفة في أصوات العربية أمر مرغوب فيه ما دام ذلك يؤدي إلى تحقيق فائدة علمية .

ولعل من المفيد التذكير بأن دراسة أصوات اللغة من خلال الملاحظة الذاتية

أمر ممكن ، وقد حققت في العصور القديمة نتائج مهمة جداً ، كما نجد عند سيبويه وغيره من علماء العربية ، وهي اليوم يمكن أن تصل إلى نتائج مُرْضية ، مستفيدة من كل ما حققته الدراسات الصوتية اللغوية القديمة والمعاصرة ، لا سيما أن علماء الأصوات المحدثين يقولون إن " أهم أجهزة عالم الأصوات هو الأذن التي تظل أداته الثمينة ، على الرغم من جميع المخترعات التقنية في عصرنا " .